عود على بدء :

الإمام داود بن ادريس

من خلال الوثائق التاريخية

في البحث الذي قدمته للمؤتمر الثالث للآثار بالبلاد العربية [1] كنت آثرت الحديث عن « اللوحة » التي اكتشفت بالبلاط الأسود في أثناء أعمال الترميم التي جرت بجامع القرويين منذ سنوات ، وقد كانت تحمل اسم داود بن ادريس ، وتاريخ سنة ٣٦٣ . وكنت تساءلت عن مملكة الإمام داود ، وكان قصدي دون ريب من هذا التساؤل هو أن نصل الى إلقاء بعض الضوء على هذه المرحلة « القلقة » من تاريخنا القديم ؛ وبعد هذا كنت نشرت كلمة [2] ثانية أجدد فيها الأسئلة مرةً أخرى وأفترض مع هذا « شريطاً » على ضوء الأحداث ؛ وحاولت أن أفهم أن الإمام داود ظل بعد وفاة يحيى الأول مسيطراً على فاس ، لا سيما وقد خسر يحيى الثاني ورقته بها ، ولا سيما أيضاً ودولة خلفه علي مجهولة البدء والنهاية ، وأنه ، أي داود ، استمر إماماً الى أن كانت دولة يحيى الثالث

---

(١) مجلة دعوة الحق المغربية عدد يناير ١٩٦٠ ص ٤٥ . فصل من مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية العدد الرابع عشر ١٩٦٠ ص ٦١ ـ ٨٨ .

(٢) مجلة التربية الوطنية المغربية العدد الرابع سنة ١٩٦٠ ص ١٩ ـ ٢٠ . مجلة الفكر التونسية عدد مارس سنة ١٩٦٠ ص ٥٢٠ ـ ٥٢٣ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الذي اغتيل سنة ٢٩٢ . وكانت هذه مجرد فروض تهدف الى « نبش » دفائن التاريخ في انتظار أن أتوفر على ما يبعث « الحقيقة » من مرقدها . ويسرني أن يجد البحث صداه ولو في طائفة جد قليلة ممن يجدون « هواية » في التاريخ ؛ وها نحن أولاء اليوم نقف على بعض المصادر الاخرى ؛ فيها بعض النصوص التاريخية ، وفيها « نقود إدريسية » ، وفيها تعاليق لبعض الأساتذة الأجانب ممن عنوا بالدراسات التاريخية [1] . وأحب بادئ ذي بدء أن أتصفح أمامكم « كتاب البلدان » لأحمد بن أبي يعقوب بن واضح المعروف باليعقوبي [2] والمتوفى في أواخر القرن الثالث الهجري ، لقد قال وهو يتحدث ـ أيام شبابه ـ عن ممالك المغرب : « ومن [3] مملكة صالح بن سعيد الحميري يصير الى مملكة بني ادريس بن ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليهم السلام ، وأول حد مملكتهم بلد يقال له غميره (؟) بها رجل يقال له عبيد الله ابن عمر بن ادريس ، ثم الى بلد يقال له ملحاص نخانة (؟) عنده يجتمع حاج السوس الأقصى وطنجة ويملكه علي بن عمر بن ادريس ، ثم قلعة صدنية وهو بلد عظيم به محمد بن عمر بن ادريس ، ثم من قلعة صدنية الى النهر العظيم الذي يقال له لمهارنة (؟) حصون وعمارات وبلد واسع عليه رجل من ولد داود بن ادريس ، والى نهر يقال له صبو عليه حمزة بن داود بن ادريس بن ادريس ، ثم يدخل الى المدينة العظمى التي يقال لها مدينة افريقيا على النهر العظيم

---

(١) Hespèris 1er trimestre 1934 Tome XV, III fasc I P. 41 — 48

(٢) الأعلام للأستاذ خير الدين الزركلي المجلد الأول ص ٩٠ الطبعة الثانية .

(٣) ص ١٣٧ من كتاب البلدان . طبعة ليدن سنة ١٨٩٠ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الذي يقال له فاس [١] بها يحيى بن يحيى بن ادريس بن ادريس وهي مدينة جليلة كثيرة العمارة والمنازل (و) ؟ من الجانب الغربي من نهر فاس ، وهو نهر يقال : إنه أعظم من جميع أنهار الأرض عليه ثلاثة ألف (كذا) رحا تطحن للمدينة التي تسمى مدينة أهل الأندلس بنزلها داود بن ادريس ، وكل واحد من يحيى بن يحيى وداود بن ادريس يخالف على صاحبه يدافعه ويحاربه » .

نرى من خلال هذا أن المغرب ما يزال كما عهدناه منذ سنة ٢١٣ إثر وفاة ادريس فهو بين الشرفاء دائماً ، وفي بعض هؤلاء من صار نصيبه الى بنيه ، لكن مع هذا اكتسبنا عناصر جديدة بواسطة هذه النقول فلقد عرفنا أولاً من أولاد عمر بن ادريس محمداً وعبيد الله بالإضافة الى ولده علي الذي فر في وجه « الخوارج [٢] الإباضية » وبالإضافة كذلك الى ادريس والد يحيى الرابع الذي سلب الإمارة سنة ٣٠٩ [٣] . وعرفنا ثانياً ان للامام داود ابن ادريس عقباً تولى زمام الأمر بدوره في بعض الجهات من المغرب ، ومن هذا العقب ولد لم يعطه اليعقوبي اسماً لكن فيه ولداً ثانياً عرف تحت اسم حمزة . وعرفنا ثالثاً وهذا مهم انه في الوقت الذي كان يوجد فيه يحيى بن يحيى على « المدينة العظمى » (يعني عدوة القرويين) في هذا الوقت بالذات كان داود بن ادريس ينزل (مدينة أهل الأندلس) ، وعرفنا أخيراً وهو أيضاً مهم أن كلاً من يحيى ابن يحيى وداود بن إدريس كان يخالف على صاحبه ويناوئه [٤] .

---

(١) يرى الأستاذ لاوست أن فاس مقلوب عن كلمة ساف تؤدي بالبربرية معنى الوادي (المغرب ــ عدد اكتوبر ١٩٣٦) .

(٢) القرطاس طبعة الرباط الجزء الأول ص ١١٣ .

(٣) المصدر السابق ص ١١٧ .

(٤) ص ١٢٢ المصدر المذكور .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ولكي نلم بسائر النقول نعطف على كتاب « البيان المغرب في أخبار المغرب » لابن عذاري المكتوب سنة ٦٠٢ ، فلقد ذكر[١] أنه لما وُلي الإمام يحيى بن محمد بن ادريس وَلَّى (أي يحيى هذا) أعمامه وأخواله أعمالاً فولَّى حسبناً القبلة من مدينة فاس الى اغمات ، وولى داود المشرق من مدينة فاس : مكناسة وهوارة ولمدينة ، وولَّى القاسم غربي فاس : لهانة وكتامة ، وتشاغل يحيى عما كان يحق له من سياسة أمره فملك أخوانه أنفسهم واستمالوا القبائل ، وقالوا لهم : إنما نحن أبناء اب واحد ، وقد ترون ما صار اليه أخونا يحيى من إضاعة أمره فقدَّموهم البربر على أنفسهم تقديماً كليا . »

وبعد كل هذا هنالك حقيقة أخرى تعتبر من الأهمية بمكان ، وهي « الدرهم » الذي يوجد[٢] للإمام داود بن ادريس بالمكتبة الوطنية بباريز .

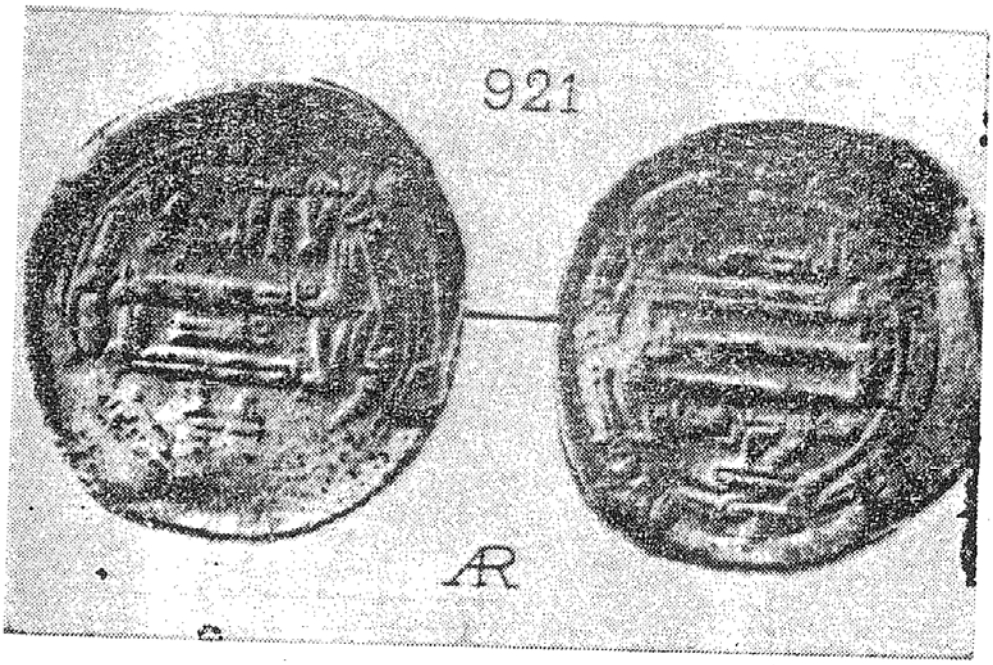

(١) صفحة ٢١١ طبعة هولندة .

(٢) Lavoix. Catalogue des monnaies Musulmanes de la Bibliotèque Nationale
Page 69 N. : 921

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لقد استطاع أن يحتفظ بجل ما نقش عليه ، وقد كتب على دائرته : « بسم الله ضرب الدرهم بواطيل (؟) سنة ... [1] عشرين وميتين » ، وفي سطحه وسطاً : « لا إله الا / الله وحده / محمد / لا شريك له / علي » كما يوجد به على شكل هلال : « المنتصر بالله / محمد / رسول / الله / داود بن ادريس / علي » .

فمن خلال هذه الوثائق كلها ، ومن خلال لوحة الأرز التي كشفت عنها أعمال الترميم ، والتي نقشت على عهد الأدارسة أقول من خلال كل هذا يتأكد أن الإمام داود ظل بالفعل ـ كما افترضنا سابقاً ـ مسيطراً في تلك الفترة الغامضة من تاريخنا القديم أو بالحري مسيطراً في بعض منها ، بل اننا الآن أمام وثائق تتضافر وبعضها يثبت أن مملكة داود كانت تشتمل في وقت ما مسافات شاسعة ، وأنها ابتدأت من حيث كانت باديء الأمر من تازة وهوارة تاسلت [2] أو تاملیت [3] ، ثم قصدت تدريجياً وجهة فاس ولأجل أن نتبين بوضوح ينبغي أن نرسم أمامنا شجرة نسب بني إدريس الأولين مقروناً بتاريخ الوفاة المحفوظ حتى نستطيع أن « نحصر » فترة سيطرة الإمام داود « المحتملة » على مدينة فاس :

---

(١) يملأ الأستاذ دميردان ـ في حديث له حول الموضوع ـ الفراغ الموجود قبل عشرين « باثنتين »
Mélanges d'histoire et d'Archéologie Tome II Page 72

(٢) المغرب في ذكر افريقيا والمغرب للبكري ص ١٢٤ .

(٣) ابن عذاري المراكشي الجزء الأول ص ٢٩٩ طبعة بيروت .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يتضح من كل هذا أن تقسيم المغرب سنة ٢١٣ الذي تجدد بعض الشيء منذ حركة التمرد التي قام بها عيسى بن ادريس حيث اتسعت منطقة عمر بن ادريس ـ كما هو معلوم ـ بالاستيلاء على حظ أخويه القاسم وعيسى ، أقول ان ذلك التقسيم لم يكن تقسيماً حقيقياً أي ان السلطة المركزية ظلت في فاس ، وظل « النواب » نوابا بيد انه إثر موت الأخ الأكبر محمد بن ادريس سنة ٢٢١ استأثر كل واحد بامارته على سبيل الاستقلال فيما يظهر ، وبهذا نفسر وجود نقود للمنتصر بالله الإمام داود بن ادريس بتاريخ يتراوح بين ٢٢١ وبين ٢٢٩ ، ثم بعد أن انتصب الإمام يحيى قام من تلقاء نفسه بتقسيم جديد بين أعمامه وأخواله ، وفي صدرهم الإمام داود الذي كان لا يزال على قيد الحياة ، وهكذا اتسعت منطقة داود بن ادريس وشمل المشرق : مشرق مدينة فاس كما جعله يستعين بأحد بنيه على تسيير قلعة صدنية ، وبالآخر ـ وهو حمزة ـ على ناحية وادي سبو ، وقد كان داود في هذا الوقت قد استقر بعدوة الأندلس كعاصمة لذلك « المشرق » وصادف الأمر ـ فيما يلوح ـ صعود يحيى الثاني للحكم ، في الضفة المقابلة : عدوة القرويين ، وهنا أخذ داود يضايق يحيى بن يحيى على « المدينة العظمى » ونحن نعلم أن يحيى هذا اضطر للانسحاب من الحكم سنة ٢٥٢ [1] على أثر هفوة أو مناورة ، وكان بعده الإمام علي بن عمر الذي لم يستطع مقاومة الخوارج الصفرية فترك لهم عدوة الأندلس وخرج فاراً بنفسه بينما صمدت عدوة القرويين واستقدمت الأمير يحيى بن القاسم ... فمتى لاذ عمر بأذيال الفرار ؟ ومتى تمكن يحيى بن القاسم من ارضاء رغبة عدوة القرويين ؟ لا يوجد لدينا الى الآن تاريخ ... ثم هل يمكن أن يبقى داود بن ادريس

(١) السلوة المجلد الأول ص ٩١ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بعدوة الأندلس « باردا » في هذه الفترات ؟ لا بد أن نرجع الى « اللوحة الأثرية » من جديد فهي تحمل اسم داود وتاريخ ٢٦٣ ويمكن أن تضفي بعض الضوء على هذه « العشر سنوات القلقة » ولعل أقرب الفروض يتجلى في أن الإمام داود وجد في سلوك يحيى حفيد أخيه محمد ، كما وجد ـ بعد ـ في ضعف ابن أخيه علي بن عمر ما يبرر اقتحامه للمدينة العظمى عدوة القرويين حيث ـ فيما يتأكد ـ تبنّى عام ٢٦٣ مسجد فاطمة أم البنين . ومن بد الإمام داود تسلم الزمام الأمير يحيى الثالث المقتال سنة ٢٩٢ .

وهكذا يكون الإمام داود دخل في التاريخ منذ سنة ٢١٢ واستمر ـ على الأقل ـ الى سنة ٢٦٣ أي نحواً من خمسين سنة ، فاذا فرضنا أنه كان في عمره يوم أن أصبح عاملاً لإقليم تازة نحواً من عشرين سنة يكون صاحبنا قد عمّر نحواً من سبعين سنة .

ترى هل تكون هذه هي الكلمة الفاصلة في الموضوع .

عبد الهادي التازي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net